

## الفصل الخامس

## مميزات الصبي المصري

يقول الفلاحون في أمثالهم أنه عندما وزع الله سبحانه وتعالى الأرزاق على الناس خرج كل منهم مقبراً بما بفضيبه غير راض عما ناله وأنه عندما وزع العقول خرج كل إنسان راضياً مقتبطاً .

والمصريون راضون عما نالهم عند توزيع العقول يحمسون الله على عطيته لهم قانعون بنصيبهم .

لقد رمانا الكتاب الغربيون بكل تهمة قالوا اننا جهلاء وفقراء ومتعصبون وقساة رمونا بالاستكانة لكل من يريد أن يظامنا ويتحكم في شؤوننا الفردية والاجتماعية ورمونا في نفس الوقت بالفوضى والميل الى عدم الخضوع لقانون أو وضع اجتماعي يعيبون علينا القذارة في الملابس والأكل وفي الأبدان قالوا اننا سريعسو التهميج لا نملك أعصابنا عند ما نستشار فنأتي من الأعمال ما لو قد ضبطنا أنفسنا ما أتينا زعموا أننا مستسلمون للأقدار فرضى بالقليل من العيش ، نكتفي بما دون الكفاف لأننا نكره السعي والعمل ونؤثر الراحة عليها قالوا اننا شعب غير أمين وأن الخطف والسرقة وامتداد اليد للمال الغير أمور عادية عندنا .

قالوا كل هذا وغيره كثير مما لا يقع تحت حصر وقد امتلأت به كتبهم عن مصر وهي كثيرة تعد بالمئات وأنما شيء واحد لم يقولوه على ما نعلم فيما قرأنا لهم — وهو كثير — انهم يتهموننا بالغباء لا يذكر الكاتب أنه قرأ لأحد منهم ما يشعره بأننا شعب غي قليل الذكاء لا بل على الضد من ذلك نذكر أننا قرأنا كثيراً عن ذكاء المصريين وبخاصة عن أطفالهم ولا يهيب عن ذهن القارىء أن الكاتب الأجنبي لا يعنى أبناء الطبقات الراقية

الموسرة المتعامدة عندما يتحدث عن أطفال المصريين ، فعندما يعني أحداً من هؤلاء يذكره عادة بالاسم أو يشير إليه بما يدل على العائلة ومكانتها الاجتماعية ولا يأتي ذكر هذا النوع من الأطفال إلا عندما يسرد الكاتب قصة زيارته لاختدي هذه العائلات أما عندما يذكر الأطفال يكون المقصد من هذا أطفال الشعب أولئك الذين نقصدهم نحن من هذا الكتاب يعني أولئك الأطفال الذين يملأون شوارع القاهرة وأزقتها وحاراتها وكل فجوة فيها أولئك الذين يحيطون بكل سائح يقصد التكسب والحصول على بعض المال .

يشهد الغربيون لأطفالنا بالذكاء الفطري والاستعداد للتعليم والتشوق بجميع الثقافات الاجتماعية والعقلية إذا ما واتاهم الحظ وانفتحت لهم الأبواب المغلقة يرون هذا في نظراتهم وحركاتهم وسرعة فهمهم لما يراهم أن يفهموه بالإشارة أو بلغة بعيدة الصلة بلغتهم حقاً لقد شكى الأجانب من معاكسة الأطفال لهم ومن الألاعيب الشيطانية التي يأتونها في علاقاتهم بهم وقد ضاقوا بهم ذرعا ولجأوا إلى البوليس والحكومة والصحافة والكتب ولكنهم مع كل هذا وبرغم كل هذا فقد شهدوا لهم بالذكاء ولا نقول ذكاء نادراً يفوق نصيب الشعوب الأخرى وإنما نزعم أنه حظ لا بأس به من هذه الموهبة الفطرية .

لاحظنا أن رد الفعل عندنا بطيء يستغرق المؤثر وقتاً طويلاً للانتقال على أجهزتنا العصبية إلى أن يصل المخ ويلزمنا فترة من الزمن حتى تصل المحسوسات حولنا إلى المراكز العليا من الدماغ ثم يلزم لنا وقتاً طويلاً آخر حتى تصل الأوامر من المخ للعضلات بالاستجابة للمؤثر فكأن بالاسلاك العصبية فينا عطل أو خلل يمنعها أن تؤدي وظيفتها خير أداء وبأقصر فترة من الزمن ويشاهد هذه الظاهرة كل من قاد سيارة في الأرياف يرى السائق الفلاح يسير وسط الطريق فيمنبهه بأن يضغط على زر جهاز التنبيه . تخرج الأصوات المزعجة من هذا الجهاز كل هذا والفلاح سائر لحال سبيله كأن شيئاً لم يحدث وكان هذه الأصوات المزعجة لم تحرق

خطبة أذنه يسير على هذا الوضع بعض الوقت ثم نراه بغير داع ومن غير  
تأنيبه وأسبب غير مفهوم يقفز من وسط الطريق إلى أحد جانبيه ويترك  
السيارة تمر . هذا الفلاح سمع التنبية كما يسمعه الناس العاديون واستجاب له  
كما يستجيب غيره والفرق الوحيد بينه وبين غيره إنما هو في أن الزمن  
بين المؤثر والاستجابة طويل نوعاً ما .

يظن بعض الناس خطأ أن هذه الظاهرة دليل على الغباء وانعدام الذكاء  
فمنذما يرون الفلاحين أو أبناء الشعب لا يستجيبون للمؤثرات كما تستجيب  
نحن ينخدعون فيزعمون أن مستوى الذكاء عند هؤلاء أقل مما هو عند غيرهم  
ويخرجون من هذا بأحكام عامة خاطئة لأنها مبنية على أسس خاطئة والواقع  
أن الخطأ في رد الفعل أو الاستجابة للمؤثرات راجع للأمراض الكثيرة  
التي تفتاب اجسام الأطفال والفلاحين ثم ترجع أيضاً إلى سوء التغذية التي  
تعطل الأجهزة عن تأدية وظيفتها خير أداء أو ترجع إلى عاهة نشأت من  
هذه أو تلك أو من حادث من الحوادث الطارئة على حياة الفرد وقد يكون  
البطء في الاستجابة للمؤثرات راجعاً إلى انعدام الذكاء إذا انتفت الأسباب  
السابقة .

لم نجر اختبارات الذكاء على الأطفال الذين عملنا معهم وإنما نستقرئ  
من تصرفاتهم العادية ومن تفكيرهم وعلاجهم للمشكلات التي تهرض لهم في  
حياتهم وفي نشاطهم ان عندهم قسطاً من الذكاء لا بأس به وقد يسكون  
حكماً في هذا الشأن سطحياً بهيماً عن التحقيق العملي والاقبسة العلمية  
وانما ينبغي لنا أن مقدار الذكاء الفطري عندهم يسمح لهم بالاضطلاع  
بمشئون الحياة الضرورية في حياتهم الراهنة حياة الطفولة وفي المستقبل  
عندما يصبحون رجالاً تلتقي عليهم أعباء الحياة المصرية جميعها ونظن أن  
الأستاذ القباني والدكتور القوصي ورجال معهد التربية الذين أجروا  
اختبارات الذكاء على كثير من هؤلاء الأطفال يوافقوننا فيما نذهب إليه نظن

أنهم يتفقون معنا في أن حظنا من الذكاء يكفي لأن نصبح شعباً له مكانته المحترمة بين الشعوب .

نحن شعب مغرم بالفكاهة والضحك عموماً، ننا مفتحة للجانب المضحك من الحياة نضحك من أنفسنا ومن تصرفاتنا نتفكك بالفقر والمرض والفقير والجاه نضحك من السياسة والتعليم ومن كل شيء يقع تحت بصرتنا سريعاً الانتقال إلى الجانب الفكاهي من الحوادث والظواهر الاجتماعية والطبيعية نتفكك بما يحدث في السماء وفي الجحيم وعلى الأرض ويكاد لا يخلو شيء من جانب يستدعي الضحك والفكاهة ولا نظن أن شعباً يجارينا في هذا ونحن في حالتنا الراهنة من الأمراض والعلل والحاجة إلى ما نتبلغ به ويفيدنا فيما ترى ماذا يكون حالنا لو أمكن لنا أن نقضى على هذه العلل ونسعد بالحياة حقاً نظن أنه في هذه الحالة تتجاوب الدنيا بفكاهة المصريين وتعم صدى ضحكاتهم العالمية كل مكان .

حقاً إن كثيراً من هذه الفكاهات التي نتندر بها يرجع إلى الجنس والمرأة والعلاقة بينهما وبين الرجل حقاً أن بعضها تهمجه الاسماع وينفر منه الذوق السليم ولكن العيب في هذا يرجع إلى نوع الحياة الاجتماعية التي نحياها وإلى رأينا في المرأة وفي الجنس وفي العلاقات الجنسية ويرجع إلى أننا نعيش في عالمين منفصلين عالم المرأة وعالم الرجل ولكن هذا على أي حال يدل على أننا شعب ضحوك مغرم بالفكاهة ولا بأس من أن نتفكك بالعلاقات الجنسية أيضاً .

وحب الفكاهة والميل إلى الضحك عنصر سليم من عناصر النفس الانسانية واتجاه في الميول وفي المزاج يحسن بأية أمة أن تتعهد في أبنائها فبهودليل على حب الحياة والدنيا والرضا ببعض ما فيها أو بعبارة أخرى وجود هذا الميل الفطري ينفي وجود التشاؤم المطلق بالحياة ويدعو إلى الشهور بالجمال في بعض متاحيمها وإلى التفاؤل بها وانتظار الخير على يديها فالأس

لا ينسرب إلى أمة عندها الميل الفطري للفكاهة والضحك . مادامت لا تفقد هذه الحاسة تستطيع مثل هذه الأمة أن تعيش وتجاهد وتحافظ على كياناتها . معها تقلبت عليها الظروف والمحن ومنها أصابها من الرزايا وبخيل الينا اننا مهشرون المصريين مدينون لهذه الحاسة فينا ففي تاريخنا الطويل اصابتنا من الحوادث الجسام ما لو اصاب غيرنا لا ندرنا وقد اندثرت فعلا ائمة كثيرة وشعوب متنوعة ومع ذلك فقد حافظنا على قوميتنا إلى حد كبير حقا لقد تغير ديننا عرات ولكن القومية باقية وجميع الأديان تأصلت وتطورت حتى أصبحت تلائم مزاجنا كأمة .

تشاهد هذه الحاسة في طبقات المتعلمين وهم جلوس على المقاهي يتندرون ويترنمون والشئ الغالب في مجالسهم هو الفكاهة والضحك ترن ضحكاتهم في جسوانب المقاهي ثم تشاهدها ايضا بين الفلاحين المساكين المرهقين العمل والذين لا تقوى ابدانهم على عمل مستديم شاق للعمل والامراض الكثيرة التي تعمل في ابدانهم من غير انقطاع تراهم يضحكون ويقهقهون رغم ضعف ابدانهم من سوء التغذية ولو كانوا صحيحين ابدان خالين من العمل تتوافر لهم عناصر التغذية الكافية لاهزت جوانب الوادي بهذه الضحكات .

رتشاهد هذه الظاهرة في اطفال الشعب ايضا هؤلاء الذين يكادون يكونون محرومين من كل شئ تقريبا لقد اغفلتهم الدولة واغفلهم الشعب واغفلهم اهلهم واصبحوا كالمذبذبين ومع ذلك تجدهم يضحكون ويتندرون ويستبدشرون بالحياة ويتفاءلون بها ويرجع كثير من تصرفاتهم التي يشكرونها الكبار إلى هذه الحاسة التي يعملون على اشباعها والاستجابة لداعيها فهم يضحك الصبيان في كل مكان وفي كل زمان ويضحك اطفال الشعوب الاخرى ايضا كثيرا ، ويعملون « المقاب » في الكبار والصغار بفرض الفكاهة ولكننا نظن أن هذا مرجعه عند هؤلاء إلى الحيوية الفائضة فيهم وإلى السعادة والرضى والاطمئنان الذي يشيع في بيئتهم وإلى الصحة وسلامة

اليدن وخالوه مما يحد من هذه الحيوية فيهم اما اطفال الشعب عندنا فلا عوذة  
عندهم ولا سعادة تملأ بيوتهم ولا غناء صحيا مناسباً يتوافر عندهم فيبت  
فيهم الحيوية والنشاط فأذا ضحكوا أو تندر أو أودبروا الا لعيب الشيطانية  
لهذه الغاية فانما يفعلون هذا على ما نظن استجابة للداعية الفكاهة واشباعا لهذا  
الحافز الفطري فيهم .

ويسير جنبا إلى جنب مع هذا الميل الفطري ميلهم إلى الموسيقى الآلية  
والصوتية وما تثيره في نفوسهم من الطرب والنشوة لقد كتبنا كثيرا في  
هذا وكتب غيرنا فقدر منا في الموسيقى المصرية وكيف انها لا هم لها إلا  
الشكوى والتعبير عما يملك علينا نفوسنا من الحزن والاسي يدور معظمها  
حول هجران الحبيب واغفاله لامرنا كل الاغفال عي عبارة عن اشهاد  
الناس على هذا الصدد واستعطاف للحبيب حتى يرضى عنا ويسامحنا عن  
ذنب لم نجنئه يتدال فيها الحب ويبكى وينوح وينرف الدموع ويتمرغ في  
التراب عسى أن يرق قلب المحبوب ويستجيب له ليس لانه اهل للحب أو  
لان فيه من قوة الرجولة وبأسهاما يجذب اليه أعجاب الحبيب وحببه وانما  
عظما على ضعيف ذليل بائس قد يستحق العطف والرثاء .

لا يدخل في باب هذه الموسيقى وصف الطبيعة أو النيل أو شعب وادي  
النيل لا تسمع منها النغنى بالجدود والتفاخر بما صنعوا وما تر كوا لنا وغيرنا  
من آثار تدل على عظمتها وعلى اننا شعب له جدود ليس مثلهم جدود ، لم تر  
للموسيقى عندنا أثر في حاسة الفكاهة فينا لم نحاول بطريقة من الطرق اشباع  
حاسة الضحك فينا فنضحك ونحن نغنى ونغنى لكي نضحك ما حاولت الموسيقى  
أن تثير فينا حب العمل وصلاح الحال والجهاد للحياة بكل انواع الجهاد ما  
حفزتنا قط على مواجهة الصعاب والتغلب عليها والقضاء على ما يقف في  
سبيلنا من معطلات وما اثارنا فينا الشعور بالرضي عن النفس للجهود التي  
بدلناها والأغراض التي وصلنا اليها لم نفعل هذا أو شيئا من هذا ونظن  
انها لم تخدم فينا غرضا اخلاقيا أو اجتماعيا أو قوميا .

وبعد فهي موسيقى للسمع وليست للتعبير عما يجول في نفوسنا هي موسيقى  
تذهب لسماعها وتدفع ثمن هذا السماع فنطرب وتنثني نفوسنا وليست ملكاً  
لنا كجماعة أو شعب نغنيها معها كجماعة وشعب نذهب إلى دور الموسيقى  
لنسمع أم كلثوم وعبد الوهاب ونشعر أننا أخذنا لمة تهالك مادفعنا من  
ثمن وبهارة أخرى نلتصق بالسمع لا لتغني وليس العيب في السماع لأن جميع  
الشعوب تستمع لأهل هذا الفن فيها وإنما العيب أننا لا تغني معها كشعب في  
الشوارع والمنزهات والمجتمعات العامة فيشعر الواحد منا أنه لازم لسعادة  
هذه الجماعة وأن الجماعة ضرورية لاشباع رغبته في الموسيقى . في بيئتنا هذه  
وجود الناس وعدمهم سيمان وكل ما يهم من الأمر وجود المغني أو الموسيقى  
وجود عبد الوهاب أو أم كلثوم أو سامي الشوا لقد انتشرت الموسيقى في  
العرب لأن أفراد الشعب يساهمون فيها وضائق حدودها عندنا لأنها قاصرة  
على المحترفين الموهوبين وهؤلاء بطبيعة الحال نادرون في كل أمة وشعب .

كل هذا صحيح وكل هذا حاصل عندنا ومع هذا فالذنب في هذا ليس  
ذنب الشعب فهو مغرم بالموسيقى مولع بها حتى أنه بعد أن يئس من قادته  
الموسيقيين استنشط لنفسه نوعاً منها يعنيه ويسلي نفسه به وما المواويل في  
الأرياف والبنادر والكلام الموزون الذي يكرره الأطفال وغيرهم إلا محاولة  
من أولئك وهؤلاء لاشباع هذه الحاسة فيهم فالمرأة تغني في بيتها والرجل  
يعني في عمله والفلاح يعني في حقله والطفل يعني في الشارع أو في المصنع  
ولا يعني هؤلاء لانهم يشعرون بالسعادة والرضى عن الحياة والاطمئنان  
إليها وإنما نظن انهم يفعلون هذا لأن حاسة الموسيقى فيهم قوية لا يملكون إلا  
أن يستجيبوا لها لا بل لا يستطيعون اغفالها أو اهمالها .

وقد وجدنا أن أطفال الشعب يقبلون على الموسيقى في أي مظهر كانت  
يحبون أن يستمعوا إلى المغنين في الاسطوانات وفي الراديو ويكررون ما  
يسمعون في العابهم وفي خلواتهم ثم وجدنا أنهم مستعدون لتعلم الموسيقى  
الجماعية يستعدون لأن يغنوا جماعة متى وجدوا القيادة اللازمة لهذا الضرب

من النشاط بالطبع لا ينتظر منهم الاجادة والابداع في هذا الفن وذلك راجع إلى درجة ثقافتهم الاجتماعية وإلى انتفاء هذا النشاط من بيئتهم وإلى خلوها منه ومع ذلك وبرغم كل هذا يقبل الأطفال على الغناء الجماعي بشغف واضح يحسه كل من يتصل بهم بشرط أن تكون النغمات محبوبة مفهومة عند سمع وبشرط أن يكون الكلام الذي يغنونه متصلاً بحياتهم كل الاتصال.

من حسن الحظ أن الشعب المصري مولع بالموسيقى ومن حسن الحظ أيضاً أن عنده الدافع التطوري لهذا الضرب من التعبير عن الخواج النفسية وتود أن لا تعمل ظروف الحياة على قتل هذا الميل فيما نتم نأمل أن يتبين الله لنا شيئاً من المواهب الموسيقية التطورية ومن الثقافة الواسعة ومن تطلب الخدمة هذه الأمة ما يجعله يتفانى في هذا الميدان ويكلف نفسه مشقة الجهاد لتتميز مزاج الشعب في الموسيقى وتوفير الأغاني الشعبية النافعة له وتدريبه على الغناء كشعب وكأمة وكجماعة لا كأفراد مستغلين منفصلين عن بعضهم البعض.